Coptic Orthodox Church
الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
دراسات كتابية وآبائية
Biblical and Patristic Studies

فصح يونان

صباح مشرق على نينوى

القمص تادرس يعقوب ملطي

2021

صباح مشرق على نينوى

الرجاء في الخلاص بواسطة مصادر بشرية ليس خلاصًا، لأن الوسائل القابلة للموت لا تهزم الموت. لذلك فإن أولئك الذين يعيشون في وقت الاضطرابات يلزمهم أن يكونوا مُتَلهِّفين على الصلاة لربِّ السماء، الذي يسمح بالحزن أو البهجة، وهو وحده بتنازله المتواضع، يمكن أن يؤكد أن المتاعب قد أُزِيلَتْ والأزمنة السعيدة قد استُردت ...

قوة الصلوات والقوة الشافية للدموع في حضرة الله أبينا هما الدرس الذي يلزم تَعَلُّمه من نينوى التي خلصت بحزنها... هكذا الإيمان الذي يتكئ على الله يجب أن يُقَوِّي القلوب المُرتعِبة، وثقتها في الله يجب أن توحي لها بأيام مملوءة سلامًا. فإن مخافة الرب تكفل التحرُّر من الخوف، بينما من لا يخاف الرب هو وحده يليق به أن يخاف من كل أحدٍ. هؤلاء الذين ليس لهم ثقة في المسيح كحامل للخلاص، يليق بهم أن يضعوا ثقتهم في فرقٍ بشرية.

الشاعر اللاتيني بولينوس من نولا

التوبة معركة أَم عَرْس!

❖ كان شهيًا التجمُّع الذي صنعته نينوى للتوبة، فكانت تُسمَعُ أصوات الألم من كل الأفواه.
محبوبًا كان الاحتفال الذي صار في شوارعهم، لأنهم كانوا يذرفون الدموع، وينالون الرحمة لأجل خلاصهم.
كان بهيًا العُرْس الذي صنعوه بانسحاق النفس، لأن أصوات البكاء كانت ترعد فيه بدل المزمار.
كان بهيًا العيد الجديد الذي صار هناك، وبدل الذبائح دخلت الصلاة لتُقَرَّبَ فيه.
فاحت التنهدات من كل الأفواه كالعطور، ليرضى الرب بذلك العمل الذي كان يُحِبُّه.
كان تضرُّعًا يملأ من ينظر إليه عجبًا، لأن الملك كان قد أصبح مؤدِّبها ليجمعها.
خرج العريس من حجاله لابسًا المسوح، وخرجت العروس من خدرها، وأحنت رأسها بحزنٍ عظيم.
تفرَّسا في الملك، وإذا به قد طرح تاجه في ألمٍ عظيمٍ، فطرح العروسان أكاليلهما وبكيا معه.
ألقت العرائس ثياب بهاء العرس، وتباهت بلبس المسوح على أجسادهن.
عوض التنعُّم ارتدين ثياب الحزن، وعوض الأطياب، وضعن الرماد على رؤوسهن.
بصوت يونان بطُلت الأفراح في المدينة، ولبست المدينة كلها الحِداد مع ساكنيها.

القديس مار يعقوب السروجي

نينوى تَدين ابنة يعقوب!

❖ دخل يونان إلى مدينة نينوى بدون انتصارات جبارة، وهو ينذر بالدمار فقط.
قال فيها كلمة بسيطة بدون برهان، ولم يحتقره رجال نينوى الذين كانوا حكماء.
ولهذا كُتِبَ أن رجال نينوى يقومون ويَحْكُمون على جيل افترى على المُخَلِّص.

لم يَدْخُلْ يونان إلى نينوى وقد عمل قوات ولا اشتهر بعجائب
مثل مُخَلِّصنا.
لم يُغَيِّرْ فيها الماء إلى الخمر لتتلذذ به، بل مزج لها ألمًا وقبلت منه لأنها كانت حكيمة .
لم يُعْطِ شفاءً للمرضى لكي يُحَبّ، بل هدَّدَ الجبابرة بالتدمير ولم يتذمروا .
لما جاءهم بأخبارٍ سيئةٍ سمعوه بحبٍ، فلو فعل هناك أمور حسنة ماذا كان سيحدث؟
أعلن هناك أن المدينة ستهلك وقد قُبِلَ، فلو قدر أن يقيم الموتى كم كان سيُعظَّم؟
قال لها إن أحياءها سيموتون، فسجدت وأكرمته، فلو قال لها: سيحيا أمواتها لعلها كانت ملَّكته عليها !
صهيون نقضت سبيل ربِّنا المحبوب، وإذ كان يصنع فيها الحسنات كان يُهان .
شفى المرضى وعافى الأوجاع وطَهَّر البرص وأَخْرَجَ الشياطين وأَسْمَعَ الصم ...
صهيون جحدت كل هذه الحسنات وبعد كل هذه الأمور كافأت ابن الله بالإهانة
يونان لم يفعل أمرًا واحدًا من هذه الأمور في أرض نينوى، بدأ بالهدم وجميعهم أحبُّوه وتوسَّلوا إليه ...
يليق بهذه (نينوى)، الاسم الفاضل في العالم كله، لأنها عملت في الأرض عملاً صالحًا .
هذه التي تقوم في اليوم الأخير مع ابنة يعقوب وتدينها، لأنها تشكَّكَتْ في المُخَلِّص .
تخلَّصَتْ نينوى بالصلاة لا بالذهب، مدينة دفعت الدموعُ ثمنها، ودخلت ثم سَكَنَتها .
مدينة مقتناه بصلوات من قِبَل الله.. مُعَلِّمَة بنيها صوم الألم وبه تخلص .

القديس مار يعقوب السروجي

صباح مشرق على نينوى

❖ تغيَّرَتْ أصوات البكاء بالتسبيح، وعوض الدموع مسحوا وجوههم بالبهجة.
هتف الأحرار أمام الملك بصوتٍ مرتفعٍ: لتُفَرّحك يا ملكنا البشارة الجديدة، ونحيا معك .
قُمْ أيها النشيط من المذلة وافرح معنا .
أيها الحكيم غيِّر مسوحك، لأن الغضب قد بطُل .
قُمْ من الرماد، لأن الرب ارتضى بتقرُّبنا إليه. اختم طلبتك، لأن المدينة قد تغطَّتْ بالرحمة .

القديس مار يعقوب السروجي

خصومة مملوءة دهشة !

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [حقًا لقد خجل النبي إذ رأى أن ما تنبأ به لم يتحقق... أما الله فلا يخجل أن يطلب أمرًا واحدًا هو خلاص البشر وصلاح خادمه.] ويرى القديس چيروم أن غَمَّ يونان وشكواه يقومان على إدراكه مراحم الله ورأفاته، إذ لم يكن مُمْكِنًا أن يُقَدِّمَه لأهل نينوى كإلهٍ قاسٍ، لذا اشتهى الموت ولا يرى مراحم

الله تدرك الأمم بينما إسرائيل يهلك، فيقول على لسان يونان النبي: [إنني الوحيد بين كثرة الأنبياء أُعلِنُ لشعبي عن دماره خلال خلاص الآخَرين].

❖ حزن ذاك العبراني، وصار في ضيقٍ شديدٍ وكآبة نفس، وصلَّى بألم إلى الله .
دبَّتْ فيه الغيرة، ليُعاتِب الربَّ بسبب الرحمة، وهو يتأسَّف .
ربِّي، أنا أعرف أنك رحوم ورؤوف، ولهذا سَبَقْتُ فهربتُ لما أرسلتني .
كنت أعرف طول أناتك منذ مدة طويلة، ولهذا خفتُ أن آتي إلى نينوى المملوءة إثمًا.
ربِّي، كنتُ أعرف بأنه لا حدَّ لنعمتك، ولن تتركك رحمتك تضرب الأشرار كما ينبغي.
كنتُ مُتيقِّن أن بحر الرحمة يجري منك، وكل تهديدك يضمحل به، وكأنه غير موجود ،
ربِّي، كنت أعرف كم أن يدك مملوءة حنانًا، ولا تقدر أن تُمْسِكَ العصا لعذابٍ مُبْرِحٍ .
كنت أخاف من هذا الأمر الذي حدث الآن، ولهذا سبقتُ وهربت منك مثل عاصٍ .
هذه كانت قناعتي لما كنتُ في وطني، فقد وجدتك رحومًا كما كنت أعرف، ولهذا استصعبتُ أن أُنذِرَ.
كنتُ أعرف، ولهذا لم أُرِدْ أن آتي إلى نينوى، غصبتني لآتي، فأتيت لأدعو بدمار، والآن لم يحدث .

❖ انظروا أيها الحكماء بماذا يلوم يونان الله: عرفتُ أنك رحوم وحنان .
عيَّره على الرحمة، ولامه لأنه لا يؤذي، وعاتبه على نعمته الكثيرة.
كان خصام مملوء عجبًا لمن ينظر إليه، وقد أعده النبي ليتخاصم مع الله.
فتَّشَ عن أسباب بحسب إمكانيته ليناقشه بها، ولم يجد سوى كونه رحومًا .
كان يُعَيِّره بهذا التعيير لأنه يرحم، ولهذا السبب بدأ يونان يلومه.
تضايق يونان ولو وجد ربوات الحجج، لأتى بها ضد ربِّه بسبب الحزن الذي لحق به .
وإذ لم يقدر أن يقول شيئًا، قال باختصار: عرفتك أنك رحوم وحنان .
لام الله على رحمته ورأفته، وبدأ يطلب الموت لنفسه بمرارة .
تضرَّع قُدَّام الله: "يا سيدي خُذْ منِّي نفسي، لأن الموت الآن أفضل لي من الحياة .
أود أن أكون ميتًا، ولا تجعلني كاذبًا! الآن فسدت كلمتي الخاصة بالنبوة، والموت لي خير من العار .

القديس مار يعقوب السروجي

يقطينة قَرْع تنبت فوق رأسه !

تطلع يونان إلى ظل الشُجيرة كبيتٍ له، يَحمِيه من حرارة الشمس؛ ففرح به وزال عنه حزنه. وفرح قلبه، وتلذَّذ بالهواء الرطب، وزالت كآبته منه. استراح المُتعَب من عناء كرازته، وزالت عنه كل هذه الأمور التي جعلته يتذمَّر.

❖ أعطاه الله شيئًا لكي إذا ما أخذه منه يتألم لفقده.

أمر يقطينة قَرْع أن تنبت فوق رأسه، فكثر الظِل بالمظلة التي صنعها له.

أمر الرب، ونبتت اليقطينة فوق يونان، ورآها ففرح، وزال ضيقه الشديد.

استراح المُتعَب تحت الظل، وابتهج قلبه بزوال الضيق المحيط به

أُعجِبَ الرجل بالبيت الجديد الذي اقتناه فجأة، وأَحبَّه كثيرًا حتى نسي كل ألمه.

ابتهجت نفسه بالأوراق التي رآها هناك، فهدأ من الغضب، ولم يعد يطلب الموت لنفسه.

نَظَّم له الرب أمام وجهه منظرًا شهيًا، وبحكمة أبهج محياه المكمد.

رأى الأوراق والثمار مرصوفة فوق رأسه، فتكبَّر الرجل مثل غني بذهبه الكثير.

رأى الأزهار في ذلك السقف الذي فوقه، وفرح بها كأنما بالكواكب التي توجد في الفضاء.

القديس مار يعقوب السروجي

انثقب بيت يونان!

بينما كان يونان يستظل تحت اليقطينة، وفي الغد عند طلوع الفجر ضربت الدودة الشُجَيْرة وامتلأت أوراق الشُجيرة ثقوبًا بسبب الدودة، فشعر يونان كأن بيته مملوء ثقوبًا. واذ هبَّتْ ريح سقط الورق المثقوب عليه، فقام من نومه في فزعٍ، لم يعد بيته قادرًا على حمايته من حرارة الشمس. فتمرَّرَتْ نفسه فيه وانسحق، مشتهيًا لنفسه الموت.

❖ حينئذ أمر الرب يقطينة القَرْع فيبست، بريح حارة أُرسِلَتْ إليها.

تناثرت الورود، ويبست الأوراق وذبلت الثمار..

انثقب بيت يونان من كل جانب، ودخلت الشمس، وسحقت الرجل بمرارة.

حملت الريح ذلك الظِل الذي أراحه، واشتدَّ الحرُّ، وتضاعف العناء على المُتعَب.

تحوَّل الجو الرطب إلى سخونة، وحرقه الحرّ في سبات مُتعَب استولى عليه.

تناثرت الأوراق التي فوقه، وقلق الرجل، وأفاق من نومه، وهو مذعور.

ولعله ظنَّ أن هذا هو الدمار الذي كان ينتظره، هجم على المدينة، وبلغ إليه ليُعَذِّبَه.

نظر ليرى، هل دمَّرَ الاضطراب نينوى، واستأصل معها مظلته الشهية.

تُرَى هل قَلَبَ الغضب المدينة على ساكنيها، وأتى وبلغ إلى اليقطينة واستأصلها فسقطت؟

وإذ نظر ووجد أن المدينة قائمة ولم تُدَمَّرْ، استاءت نفسه، وسأل الموت بألمٍ شديدٍ.

تضرع إلى الله: ربِّي، خُذْ نفسي، أعطني الموت الذي أطلبه ...

مدينة الغُلف المبنية بالإثم لم تُهدَمْ، والمظلة الصغيرة التي اقتنيتها أصابتها الرياح!

خربت المظلة التي لم تتجاوز وصاياك، ونينوى تتهلل طربًا، وكانت شرورها لا تُعَد!

مدينة الأشرار أسوارها مرتفعة ومنيعة، واليقطينة الصغيرة
التي قدَّمَتْ لي راحة اقتُلِعَتْ وانطرحت!
أبراج الأُمميين المملوءة إثمًا نَجَتْ من الغضب، والأوراق البسيطة التي
اقتنيتها سقط وذبلت.
الآن يا رب، حلني من الحياة التي تزعجني. فإني أستريح بالموت فإني لا أجد هنا راحة!
باليقطينة التي يبست، أظهر الرب له أنه وهو نبي أيضًا هو إنسان، ويؤلمه هو أيضا الألم.

القديس مار يعقوب السروجي

لماذا تلوم مراحمي؟

❖ ردَّ الله على سؤال يونان بسؤال، إذ قال له: هل حزنتَ كثيرًا كما تقول؟
قال يونان: حزنتُ جدًا حتى الموت، ضيقي عظيم، وبسببه طلبتُ الموت.
وإذ قال إنه حزن على اللاشيء، حينئذ استعمل الرب التأنيب
قُلْ لي أيها النبي لماذا ذَممتَ شفقتي،؟ ولماذا عاتبتني لأنني تخلَّيْتُ عن التدمير؟"
يقطينة القَرْع التي لم تتعب فيها ولا ربَّيْتها، نبتت في الليل وأنت لم تشعر أو تعرف بها،
عادت ويبست، وأنت بعيد من الأمريْن، ولا يعود إليك نموها ولا جفافها.
ليس لك يد في أنها نبتت ولا يبست، وإذ كان الأمر هكذا، إذا بك حزين جدًا كما تقول.
كيف لا أحزن بهدم المدينة العظيمة التي تضم ألوفًا من الناس؟
لماذا لا تُشْفِقْ على ربوات الأطفال، الاثنتي عشرة، هؤلاء الذين في نينوى مع الحيوانات الكثيرة؟
اليقطينة التي يبست وهي ليست ملكك أحزنتك، المدينة التي هي ملكي لماذا لا تشفق عليها إذا دُمِّرَتْ؟
أنا الذي صوَّرتُ الأطفال في بطون أمهاتهم، وأعطيت الحياة للناس الناطقين.
أنت لم تخلق اليقطينة، وانزعجتَ لأنها فسدت، أنا الذي خلقتُ ألا أشفق على مخلوقاتي؟
أنا غضبتُ على أهل نينوى فأرسلتُك، ولما طلبوا مني، أشفقتُ، فلماذا تتذمر؟
من شأني أن أريد، ومن شأني أن أصنع ما أشاء، لماذا أنت مُنزعِج لأني رحمتُ التائبين؟...
كل أحدٍ يحزن على مقتنياته إن فسدتْ، لماذا تُسرِعُ أنت لتهدم مدينتي التي هي ملكٌ لي؟...
كما حزنتَ أنت الآن، أنا أيضا أحزنُ أكثر منك على نينوى لو سقطت.
بحنانه فتح بابًا عظيمًا للتوبة، مبارك لأنه مملوء بالمراحم، ويُشْفِقُ على من يَدْعُونه[1].

القديس مار يعقوب السروجي

القمص تادرس يعقوب ملطي
الخميس ١٨ أمشير ١٧٣٧ش
٢٥ فبراير ٢٠٢١م

[1] الميمر 122 على يونان النبي (راجع نص بول بيجان ترجمة الدكتور بهنام سوني)؛ الميمر 12 على يونان النبي وتوبة أهل نينوى يُقرَأ في صوم يونان (قبطي)؛ يونان النبي والنداء إلى نينوى، نقلها إلى العربية الأب إميل أبي حبيب الأنطوني، ص 267-259.